

راهن الخطاب المسجدي والمرجعية الدينية الوهنية

الدكتور مرزوق العمري

كلية العلوم الإسلامية - جامعة باتنة

الإسلام عبر تاريخ الإسلام الطويل بغرض تيسير الوصول إلى المرجعية الكبرى. وإذا تم الحديث عن هذه المرجعية - العلوم الإسلامية - يتساءل المسلم الجزائري في نفسه عن المرجعية الدينية الجزائرية التي لا تكاد تذكر. وقد دفعني إلى الاهتمام بهذا أمور الموضوع منها:

1- إن الخطاب المسجدي خطاب ينتظر منه أكثر مما ينتظر من أنماط الخطاب الأخرى في خدمة الدين، أو في خدمة الحقيقة، أو في خدمة التاريخ... أو غير ذلك وهذا لمنطلقات هذا الخطاب، وللفضاء الذي يتموقع فيه.

2- في الجزائر جوبهنا في السنوات الماضية بسؤال كبير ومخيف في الوقت ذاته وهو سؤال الهوية، وهو السؤال الذي كان يطرح في بعض وسائل الإعلام وتضمنته

للمسجد في الإسلام مكانته المتميزة التي إذا روعيت أمكنه أن يؤدي الدور المنوط به في خدمة الإسلام بنشر علومه، وتربية أبنائه، ومعالجة مشاكلهم الاجتماعية والمعرفية وغير ذلك، وهذا ما يجعل الخطاب المسجدي يمتاز بمرونة خاصة تراعي البعد الزماني والبعد المكاني للمسلم في معالجة قضاياها. وهذه مهمة ينهض بها هذا الخطاب في كل عصر؛ تفعيلا للمرجعية الإسلامية وتوكيدا لخاصية من خواص الإسلام الذاتية وهي صلاحيته لكل زمان ومكان.

وحتى يتحقق هذا الهدف ينبغي أن يحرص هذا الخطاب على العلاقة مع مرجعيته الكبرى التي هي الكتاب والسنة، ومع المرجعية الثانوية التي هي العلوم الإسلامية التي أسسها علماء

هذه المرجعية ثرية ومتنوعة اقتصرت هذه الدراسة على بعدين من أبعادها وهما:

- المرجعية العقيدية
- المرجعية الفقهية

أولاً: معنى الخطاب وردت كلمة خطاب في اللغة العربية بعدة معان تتميز عن دلالتها اللسانية الحديثة وإن كانت تتقاطع معها. ومن هذه الدلالات "الكلام". لقد وردت كلمة "خطاب" في اللغة العربية بمعنى الكلام، وهذا ما ذهب إليه ابن فارس بقوله: "الخطاب كل كلام بينك وبين آخر" (1).

وأورد ابن منظور في لسان العرب كلمة "خطاب" بمعنى الكلام، أو ما يتصل بالكلام فقال: "الخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام" (2). ومنه الخطبة، وهي عند العرب الكلام المنشور المسجع (3).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَنزَلْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ ص: ٢٠، قيل في تفسير كلمة "الخطاب" في هذه الآية الكريمة هو الكلام المخاطب به. أو الكلام الذي ينبه المخاطب على مقصود (4).

وذهب بعض المفسرين إلى أن "فصل الخطاب": أما بعد؛ و داود عليه السلام أول من

بعض الطروحات الحزبية وأخذ جدلاً متميزاً، وذلك بسبب الجهل بترائنا.

3- إن المرجعية الدينية الوطنية هي قبل كل شيء مرجعية إسلامية، وإذا كان علمائنا في الماضي قد أدوا ما عليهم بما هو متاح لهم، فعلى المهتمين بالدراسات الإسلامية أن يبحثوا في آثار أولئك العلماء لخدمتها وللإفادة منها.

وإذا كان الأمر كذلك فإنه يقع على عاتق الخطاب المسجدي في الجزائر في الراهن شيء من المسؤولية إزاء هذه المرجعية الوطنية؛ بأن تكون مرجعيته الأصلية تتماشى مع المنحى الحضاري العام للجزائر، وخادمة لصفحة من الصفحات الإسلامية وهي الصفحة الجزائرية.

وبناء على ذلك كانت إشكالية هذه الدراسة، والسؤال المحوري الذي تدور عليه هو: ما علاقة الخطاب المسجدي في الراهن بالمرجعية الدينية الوطنية؟

للإجابة على هذا التساؤل ينبغي أن نحدد معنى كلمة خطاب أولاً باعتبار مقولة الخطاب مقولة حديثة خاصة في توظيفها وإجرائيتها، ثم بعد ذلك نقف عند المرجعية الدينية الوطنية. ومادامت

ثم صار يستعمل في سائر المجالات المعرفية كالفلسفة وغيرها.

ففي معجم لاروس وردت هذه الكلمة "Discours" في معناها العام بأنها تدل على ظاهرة فعلية أو قولية أو كتابية لتحديد إيديولوجيا معينة، أو لتحديد حالة عقلية في ظرف مهم بالنسبة لمجال معين⁽⁷⁾.

و مثل هذا التعريف هو الأقرب للاستعمال في الخطاب المعاصر إذا ما قورن بالمعاني السابقة الواردة في اللغة العربية، وهذا من الأمور التي ينبغي أن يشار إليها؛ لأن المصطلح نفسه آية من آليات القراءة التي سيكون لها تجل في الرؤية لاشك في ذلك. ثم بتطور البحث اللغوي عند الغربيين في التاريخ المعاصر صارت مدلولات "الخطاب" تسير في خطين رئيسيين:

أولهما علم تحليل الخطاب؛ وهو المجال الأسلوبى اللغوي، والثاني بعض الاستعمالات في النقد ما بعد البنيوي⁽⁸⁾.

فعلى المستوى اللغوي يدل مصطلح "الخطاب" على كل كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء كان مكتوباً أو ملفوظاً، أما الاستعمال الاصطلاحي فيدل على

قال: أما بعد. و قيل أن معنى: أما بعد، ما مضى من الكلام⁽⁵⁾.

ومن الخطاب أيضاً الخطب وهو الشأن أو الأمر، صغر أو عظم، كما أن الخطب يأتي بمعنى الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، ومنه أيضاً الخطب، وهو الذي يخطب المرأة وجمعه أخطاب⁽⁶⁾.

و هناك من ذهب إلى القول بأن "الخطاب" هو توجيه الكلام؛ أي توجيهه نحو الغير للإفهام.

هذه الدلالات التي وردت بها كلمة "خطاب" سواء أكانت بمعنى "الكلام" أو مراجعة الكلام "أو توجيه الكلام". توحى بأن الكلمة متداولة في اللسان العربي قديماً، ولكن الدلالة الحديثة الموظفة في الخطاب المعاصر تختلف عن هذا المعنى التراثي القديم، وإن كانت تتقاطع معه أو تتضمنه.

ولهذا فكلمة "خطاب" في الكتابات الحديثة المعاصرة توظف مترجمة عن الدلالة الأجنبية "Discours" كما هي في اللغة الفرنسية مثلاً، وهذه الكلمة شاع توظيفها بفعل التطور الذي عرفته اللسانيات الحديثة، ومن ثم عرف المصطلح توظيفاً واسعاً في مجال النقد الأدبي واللسانيات،

وهو بهذا المعنى يلحق بالتحليل اللساني.

- الخطاب بمعنى المقول منظورا إليه من زاوية الميكانيزمات الخطابية المتحركة فيه أو المكيفة له، وهكذا يصبح البحث في ظروف وشروط إنتاجه تجعل منه خطابا.

- الخطاب بمعنى المقول: الذي يفترض متكلمه و مستمعا شريطة أن تكون لدى الأول نية التأثير في الثاني.

- يرد الخطاب بمقابلته بمفهوم اللغة. يجعل البعض الخطاب مرادفا للنص⁽¹⁰⁾.

هذه معاني مختلفة ترد بها كلمة "خطاب" بالمعنى الذي تمارسه اللسانيات الحديثة وتشير بعض الدراسات إلى أن المصطلح "خطاب" صار شائعا في الأدبيات العربية الحديثة والمعاصرة بدلا عن الحديث، والقول، وأشمل من المقال، وأيسر من الأقاويل التي كانت متداولة عند الفلاسفة العرب قديما. كما أن اعتماد هذه المقولة - الخطاب - بهذا المعنى المعاصر في الكتابات العربية تم في ملتقى ابن رشيقي في ماي 1980 بالجزائر. بدل الدلالات السابق ذكرها. ثم شاع هذا المصطلح بعد ذلك. وهذا التوظيف لكلمة "خطاب" في الثقافة العربية جاء متأخرا عن توظيفها في الثقافة الغربية التي بدأت

أن الكلام له دلالات غير ملفوظة يدركها كل من المتحدث والسامع دون علامة معلنة أو واضحة ومن هنا اعتمد البحث المعاصر على عملية استنباط القواعد التي تحكم مجالا ما بغيره مثل السيميائية⁽⁹⁾.

ويستشف من هذا أن كلمة خطاب " تعود إلى عنصري اللغة والكلام؛ فاللغة نظام رمزي يعبر به المتكلم عما يريد، والكلام إنجاز لغوي فردي يوجهه المتكلم إلى شخص آخر هو المخاطب. ومن هنا تأسس مصطلح " الخطاب"، وبما أن هذا المصطلح - الخطاب - على ارتباط بتطور درس اللسانيات، ونظرا لتعدد مدارس هذا العلم، تعددت مدلولات مصطلح " الخطاب " لخصها بعض الباحثين فيما يلي :

- الخطاب بمعنى الكلام، وهو المعنى المعروف به في اللسانيات البنيوية.

-الخطاب بمعنى الرسالة أو المقول، ويرد بهذا المعنى باعتبار استناده إلى فاعل وباعتباره أيضا وحدة لغوية تتجاوز أبعادها الجملة.

- الخطاب بمعنى مجموع قواعد تسلسل وتتابع الجمل المكونة للمقول،

الدراسة ويبيدها عن مستوى الانطباع إلى مستوى التفكيك (14).

2- جانباً الخطاب: من خلال هذا التعريف أيضاً، يمكن الوقوف على جانبي الخطاب. أحدهما المتكلم أو الكاتب، والثاني المستمع أو القارئ. وكلاهما مهم في تأسيس الخطاب؛ لأن المتكلم أو الكاتب يريد تقديم فكرة، أو يبلغ وجهة نظر معينة، وهو بذلك ينشئ "خطاباً"، والمستمع أو القارئ يتلقى فكرة المتكلم أو الكاتب بطريقته الخاصة فينجز تأويلاً لكلام الباث وتأويله "خطاباً" أيضاً (15).

من هنا ركزت الدراسات اللسانية الحديثة على دور القارئ في تأسيس الخطاب من خلال فهمه وتأويله. فبرزت التأويلية كانشغال معرفي مهم يعطي الأولوية للقارئ على حساب الكاتب، وقد استفحلت هذه النزعة التي تركز على القارئ إلى أن ظهرت مقولة "موت الكاتب" (16).

3- ماهية الخطاب: وتتمثل في بناء من الأفكار تم بطريقة استدلالية، فيشكل بذلك مقول الكاتب البعيد عن المعاني الذاتية، والمصوغ في بناء استدلال (17).

تستعمله منذ القرن 17 (11).

أما من الناحية الاصطلاحية، فقد عرف "الخطاب" على أنه مقولة منطقية تعني التعبير عن فكر متدرج بواسطة قضايا مترابطة (12).

ومن علماء اللسانيات من يعرفه بأنه: "كل نطق أو كتابة تحمل وجهة نظر محددة من المتكلم أو الكاتب وتفترض نية التأثير على السامع أو القارئ، مع الأخذ بعين الاعتبار مجمل الظروف والممارسات التي تم فيها" (13).

من خلال هذين التعريفين خاصة التعريف الثاني يمكن الوقوف عند عدة أمور منها:

1- الوظيفة الاتصالية للخطاب.

فقد أصبح أهم آلية في تحديد طرق الاتصال كوظيفة أساسية من وظائف اللغة؛ خاصة لاهتمامه بأطراف الكلام المختلفة ومجمل الظروف التي يتم فيها، ولهذا فإن من الباحثين من ذهب إلى أن "الخطاب" صار من أبرز الظواهر التي يعتمد عليها في تحديد طرق الاتصال، وضبط بنية التعبير وهو بذلك يخرج

فيها الكلام كخطاب ينطوي على الهيمنة والمخاطر" (20).

وبهذا خرج مصطلح "الخطاب" من الفضاء اللغوي ومجال النقد الأدبي ليشمل مجالات معرفية أخرى، فصار هناك الخطاب الأدبي، والخطاب الديني، والخطاب الفلسفي... وصارت للخطاب أبعاد متعددة أحصاها بعض الباحثين في ثلاثة أصناف هي:

أولاً: البعد اللغوي، وفي ضوئه تتحدد علاقة اللغة بالخطاب، فالخطاب باعتباره كلاماً هو لغة كما يمارسها المتكلم.

ثانياً: البعد اللساني، ومن خلاله ينظر إلى الخطاب على أنه وحدة تساوي الجملة أو تعلو عليها؛ لأنها قد تختلف كما قد تنطوي على جملة واحدة أو على عدة جمل. من هذه الناحية يرتبط بها الخطاب في دراسته لعملية التلفظ فيصبح مركزاً للمركبات متلاحقة، تصوغ علامات الرسالة وتضع لها علامات في البداية وفي النهاية.

ثالثاً: بعد المتكلم، من خلال وظيفة الكلام الصادر عنه وهذا البعد ينظر ويراعي الملفوظ ويركز على عملية التلفظ بوصفها

ومن التعاريف الإصطلاحية أيضاً التعريف القائل إن الخطاب هو: "كل كلام تجاوز الجملة سواء كان مكتوباً أو ملفوظاً" (18).

من خلال هذه التعاريف تبدو مقولة "الخطاب" تصدق على الكلام سواء كان هذا الكلام مكتوباً أو شفويًا، إلا أن التطور النقدي المعاصر صار يميز بين المكتوب والشفوي من الكلام، وهذه من الملاحظات التي أشار إليها تعريف بنفنيست (E. Benvenist)، والتي ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار، وهذا خاصة في مجال تحديد الدلالة لأن الكلام له دلالات غير ملفوظة يمكن أن يدركها المتحدث والسامع دون الاعتماد على علامة معينة، كأن يتكلم ساخراً مثلاً فيوظف عبارة النجاح للدلالة على الرسوب، أو عبارة الفقر للدلالة على الغنى، أو ما إلى ذلك من أساليب الكلام المختلفة.

ثم نجد دلالة الاصطلاح تتطور مع ميشال فوكو (Michel Foucault) (19)، الذي يعرف الخطاب بأنه: "شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج

بعد التنوير"⁽²²⁾. وكان كلام إدوارد سعيد حول الاستشراق باعتباره خطابا.

بعد تحديدنا لمفهوم الخطاب يمكن أن ندرك ما هو الخطاب المسجدي؟ فهو كل ما يقدمه المسجد من أعمال علمية تتم صياغتها لغويا من خطبة الجمعة إلى درس الجمعة إلى الدروس المختلفة المتعلقة بالمناسبات وغيرها مما يهدف إلى إحداث نوع من التأثير في رواد المسجد ويحدث نوعا من التغيير في محيط المسجد باعتبار المسجد هو المؤسسة التي تنتج هذا الخطاب.

ثانيا : المرجعية الدينية الوطنية: وإذا

كان الأمر كذلك فهل الخطاب المسجدي في الجزائر يعتمد في ممارسة وجوده على المرجعية الدينية الوطنية؟ وقبل ذلك هل هناك مرجعية دينية وطنية؟.

الإجابة بطبيعة الحال نعم هناك مرجعية دينية وطنية وهي الحقيقة التي تعتبر من قبيل الشرف المجهول، وهي التي أشار إليها الحفناوي بقوله: "فالظاهر أن القطر الجزائري قد اجتهد قديما في طلب العلم بجميع أسبابه، وأتاه من سائر أبوابه، ووقف على معقوله و منقوله، فتمكن من أصوله وفصوله،

تنزيها وإعيا موضوعيا لعناصر متضافرة من الجهاز اللغوي"⁽²¹⁾.

وهكذا أصبح مصطلح "الخطاب" ومن خلال هذه الأبعاد التي تشكلت له في الكون الحداثي مجالا معرفيا مستقلا، فتلور لدى الباحثين في مجال الفلسفة والنقد الأدبي البحث في نشأته وآلياته وفي هيمنته، وقد ساعد على ذلك طبيعة المجتمع الغربي المعقدة، ومستواه الحضاري بالإضافة إلى تطور الوعي السياسي والفكري في الغرب الذي عرف توظيف مصطلح "الخطاب".

كل ذلك أسهم في توظيف هذا المصطلح وفي تطوره إلى أن صار فضاء معرفيا، وهذا ما يمكن أن يستشف خاصة من تعريف ميشال فوكو. وبهذا صار مفهوم الخطاب "من المفاهيم الإجرائية التي لا يمكن الاستغناء عنها في التعاطي مع المعرفة الغربية. يقول إدوارد سعيد: "في اعتقادي أنه من دون مفهوم الخطاب لا يستطيع المرء أن يفهم الحقل المنظم تنظيما هائلا الذي استطاعت أوروبا أن تديره بل وتنتج الشرق سياسيا واجتماعيا وعسكريا وعلميا وخياليا أثناء فترة ما

الإسلامية، وكانوا يصطلحون عليه "علم التوحيد" وأيضا "علم الكلام". وفي العصر الحديث صار يعرف بعلم العقيدة.

وقد أدرك علماء الجزائر هذه الأهمية فقال عنه مصطفى الرماصي: "علم الكلام أوثق العلوم دليلا، وأوضحها سبيلا وأشرفها فوائد، وأنجحها مقاصد؛ إذ به تعرف ذات الحق وصفاته ويصرف عنه ما لا يليق به ولا تقبله ذاته" (24) من خلال هذا الموقف كنموذج من النماذج الجزائرية التي تحد لنا طبيعة النظر إلى هذا العلم الجليل يمكن أن نقف على المرجعية العقدية عند علماء الجزائر والتي يمكن القول إنها تمثلت في ثلاثة مجالات أساسية هي: التأليف على الابتداء، النظم، الشروح والخواشي.

أ- التأليف على الابتداء:

وقد مثلته مؤلفات الكثيرين لعل في صدارتها مؤلفات الإمام محمد بن يوسف السنوسي (ت 895 هـ) الذي طغت مؤلفاته على عصره واتسعت فشملت عصر غيره داخل الجزائر وخارجها حتى يوم الناس هذا. قال عنه الدكتور أبو القاسم سعد الله: "سيطرت مؤلفات محمد

وكان لعلوم وقته جامعا ولراياتها رافعا مثل أخويه المغربين الأقصى والأدنى، فظهر في الأقاليم بدره، واشتهر في التاريخ قدره بعلماء بنوا تأليفهم على أركان التحقيق و حصنوها بأسوار التدقيق، فكانوا في عصورهم نجوم اهتداء وأئمة اقتداء، ولكن طواهم و أضرابهم فلك الانقلاب في مغارب الأفول" (23).

إذا هناك مرجعية دينية وطنية تتمثل فيما كتبه علماء الجزائر في مجال العلوم الإسلامية. طبعاً إذا أردنا الوقوف عند هذه المرجعية فلا يمكن الإمام بها بسهولة بل ذلك يقتضي مشروعا كبيرا كمشروع الدكتور "أبو القاسم سعد الله" الموسوم بـ: تاريخ الجزائر الثقافي، ولذلك ستقتصر هذه الدراسة على المرجعية الدينية الوطنية في بعدين من أبعادها هما:

البعد العقدي، والبعد الفقهي.

أولاً- المرجعية العقدية: وتتمثل فيما كتبه علماء الجزائر في باب العقيدة والتوحيد، وهي مرجعية ثرية فقد اهتم علماء الجزائر بعلم التوحيد تأليفا وتدريسا، وهذا بطبيعة الحال لمكانة علم التوحيد في البنية

على جميع العقائد مع زيادة في الفوائد، ولذلك كانت أحسن المؤلفات في التوحيد، وأخلصها من الحشو والتعقيد" (26).

وقال عنها الدكتور أبو القاسم سعد الله إنها صارت في وقتها تشكل ظاهرة لوحدها (27).

صغرى الصغرى، وهي مؤلف اختصر فيه صاحبه عقيدته الصغرى، وحظيت بإعجاب الدارسين، منهم من نظم فيها أبياتاً مشيدا بقيمتها وفائدتها ومما جاء فيها: وبعد فاعلم أنني أريد

نظم عقيدة بها التوحيد
مما رويته على الشيخ السني
أبي عبد الله نجل الحسن
ابن علي وحفيد المصطفى

شهر بالسنوسي نجل يوسف
قال وقلت تابعا لرسمه

غير الذي احتاجه لنظمه
من نقص أو تبديل أو زيادة
دعا إليه النظم للإفادة.

المقدمات المبينة لعقيدته الصغرى.
وهي صنف من العلم يقدم ليتمرن عليه
المبتدئ، وعدد مقدماتها ثمانية:

السنوسي سيطرة تامة على الدارسين لهذا العلم طيلة العهد العثماني، ولم يكن ذلك مقصورا على الجزائر وحدها بل تجاوزها إلى معظم الأقطار العربية والإسلامية (25) ومن مؤلفاته في هذا العلم:

عقيدة أهل التوحيد والتسديد المخرج من ظلمات الجهل و ربة التقليد المرغمة أنف كل مبتدع عنيد، وهذا المؤلف هو الذي اشتهر **بالعقيدة الكبرى**، وهي أول ما ألف الإمام السنوسي في علم التوحيد، وقد كتب لها الانتشار داخل الجزائر وخارجها، فحظيت بالدراسة والشرح، فقد شرحها المؤلف نفسه كما شرحها محمد عlish من مصر بشرح عنوانه: **القول الوافي في التسديد بخدمة شرح عقيدة أهل التوحيد**، ومن شراحها أيضا أحمد بن عبد الله الشهير بالمنجور الفاسي، وأبو علي نور الدين اليوسي من المغرب.

العقيدة الوسطى، وهي مختصرة مقارنة بالأولى، وقد كانت عند البعض تقرأ في مجلس واحد كل جمعة، ويحكم بضرورتها للمبتدئ.

العقيدة الصغرى، وهي الشهيرة بأم البراهين، قال عنها البيجوري: "... وإن كانت صغيرة الحجم كبيرة العلم، محتوية

يتعلق به، وفي الفصول تطرق إلى تحقيق المذهب الماتريدي في صفة التكوين، ثم تناول في الثاني تحقيق المذهب الأشعري، وفي الثالث جمع المسائل التي اختلف فيها الأشاعرة والماتريدية في علم الكلام. (28)

بالإضافة إلى هذه الكتب كتب ابن مرزوق الحفيد (ت 842هـ) **الآيات الواضحات في وجه دلالة المعجزات**، وله أيضا عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد.

وكتب أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي (ت 895هـ) **فرائد الجواهر في معجزات سيد الأوائل والأواخر**. وكتب أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني (ت 771هـ) كتابا في **القضاء والقدر**.

وكتب قاسم بن سعيد العقباني (ت 885هـ) **مصنفا في أصول الدين**. وكتب طاهر بن زيان الزواوي (ت 740هـ) **نزهة المريد من معاني كلمة التوحيد**.

ب- النظم:

تمثل في منظومات كثيرة لعل أشهرها المنظومة الجزائرية في علم التوحيد لأحمد

الأحكام والمذاهب، أنواع الشرك، في أصول الكفر والبدع، في الموجودات، في الممكنات، في الصفات الأزلية، في الإمامة، في حق الرسل.

من الذين برزوا في مجال الكتابة في العقائد أيضا يحيى الشاوي الملياني (ت 1096هـ) وقد صنف من بين علماء التوحيد في الجزائر؛ إذ اشتغل بعلم التوحيد تأليفا وتدريسا، في الجزائر وفي الجامع الأزهر بمصر وترك عدة كتب في هذا العلم منها:

التحفة الربانية في جواب الأسئلة للمدانية. **توكيد العقد فيما أخذه الله علينا من العهد**. **قرة العين في جمع البين**. **فتح المنان في جواب الأسئلة الثمان**. **النبل الرقيق في حلقوم الساب الزنديق**.

ومن الذين كتبوا في التوحيد أيضا ابن الترجمان وهو من علماء القرن الثاني عشر الهجري، إذ كتب **الدر الثمين في تحقيق القول في صفة التكوين**. تناول فيه صاحبه المسائل الخلافية بين الأشاعرة والماتريدية، ففي المقدمة تطرق إلى مدلول كلمة التكوين لغة وما

الكبرى. وقد جاء فيها:
وهكذا الجوهر والمقدار
والشكل والظلمة والأنوار
وقال قوم ما هنا تفصيل
فللوجود بهما شمول
فكل موجود بهما تعلقا
لكن بأمر زائد افترقا

من المنظومات أيضا **منظومة واسطة**
السلوك لمحمد بن عبد الرحمان الحوضي
وهو من علماء القرن التاسع الهجري،
وقد سماها صاحبها كذلك؛ لأنها ترشد
إلى السلوك الإسلامي الصحيح، وهو ما
يستفاد من قوله:
سميتها واسطة السلوك
إذ بينت كيفية السلوك

وهي أرجوزة افتتحها بقوله:
الحمد لله الذي دل عليه
إيجادنا ثم افتقارنا إليه
وبعد فالتوحيد أشرف العلوم
وهو أساسها الذي به تقوم
وقد شرحت شروحا كثيرة منها شرح
للإمام السنوسي؛ ويبدو أن الحوضي أراد
بها تيسير علم الكلام للطلاب وتجاوز
التقليد. وذلك ما يتجلى من قوله:

بن عبد الله الجزائري (ت 884هـ)، وهي
قصيدة تقع في نحو 400 بيت نظمها
صاحبها وهو في مقتبل العمر، وقد كتب
لها الانتشار فقد أخذت تشتهر: "شهرة
واسعة ليس في الجزائر فحسب بل في
العالم الإسلامي أيضا إذ لا تكاد تخلو
مكتبة قديمة من مخطوط منها" (29).

وشرحت شروحا كثيرة من أهمها
شرح الإمام السنوسي وهو الشرح الذي
تم في حياة صاحبها وبطلب منه، وهي
قصيدة مطلعها:

الحمد لله وهو الواحد الأزلي
سبحانه جل عن شبه وعن مثل
فليس يحصى الذي أولاه من نعم
أجلها نعمة الإيمان بالرسول

من المنظومات أيضا **منظومة المراصد**
لابن زكري التلمساني (ت 899هـ)، وهي
منظومة بلغت 1500 بيت وذكر الدكتور
أبو القاسم سعد الله أن بعض أجزاءها لا
تزال مفقودة، وسميت بالمراصد لأن
صاحبها قسمها إلى أربعة مراصد كل
مرصد خصه لموضوع معين مثل المرصد
الرابع الذي جعله للرسالة وما أخبرت
به، وسماها صاحب البستان **بالمنظومة**

وقد سألت الله في تيسير
أرجوزة مفهوم التعبير
قريبة الأخذ والمطالب
يقرأها الصبيان في المكاتب
يخرج قريها من التقليد
ضرورة بنظر شديد
ورب منصف من الكبار
بها اكتفى من أجل الاختصار
بالإضافة إلى هذه المنظومات هناك
منظومات أخرى منها: **محصل المقاصد به**
تعتبر العقائد لأحمد بن زكري.

من المنظومات المتميزة أيضا **إضاءة**
الدجنة في عقائد أهل السنة لأحمد المقرئ،
وهو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن
محمد المقرئ التلمساني، ولد بتلمسان
سنة (986 هـ / 1578 م) أما عن منظومته
في العقيدة إضاءة الدجنة فهي منظومة
طويلة بلغت نحو 500 بيت افتتحها
بقوله:

يقول أحمد الفقير المقرئ

المغربى المالكي الأشعري
الحمد لله الذي توحيد
أجل ما اعتنى به عبده
العالم الحي القديم الباقي
القادر الغني بالاطلاق

مرشدنا من فضله وجوده
بصنعه المعرب عن وجوده
سبحانه جل عن النظائر
وكلما يخطر في الضمائر
وتولى المقرئ بنفسه تدريس منظومته
هذه في أقطار إسلامية كثيرة؛ فقد درسها
في الحجاز في الحرمين الشريفين، وفي
مصر بالجامع الأزهر وبالإسكندرية. وفي
الشام في الجامع الأموي بدمشق وفي
بيت المقدس، أما في المغرب فقد أرسل
المقرئ بنسخة من منظومته إلى شيخه
الدلائلي. (30).

وقد أشار المقرئ نفسه إلى ذلك بقوله:
وإنني كنت نظمت فيه
لطالب عقيدة تكفيه
سميتها (إضاءة الدجنة)
وقد رجوت أن تكون جنة
وبعد أن أقرأتها بمصر
ومكة بعضا من أهل العصر
درستها لما دخلت الشاما

بجامع في الحسن لا يسامى
وكتب لها بذلك الانتشار فصارت
تضاهي كبار المتون التي كانت تدرس في
العقائد في ذلك الوقت. ولا تزال النسخ

على الشرح أبياتا منها:
شرح الكفاية المتدين
تحصيله فرض عليك معين
تجلو معانيه القلوب من الصدا
وتنيرها واللفظ سهل بين.

2- شرح عبد الرزاق بن حمادوش:
وهو شرح على كبرى السنوسي سماه: مباحث
الذكرى في شرح العقيدة الكبرى، وقال
عنه: "...فجاء بحمد الله يرضي الناظرين
ويعين القاصرين مشتملا على خمسة
وستين مبحثا" (31).

3- حاشية سعيد قدورة على شرح
السنوسية، وهي حاشية وضعها لشرح
السنوسي على صغره بعدما قام بتدريسها،
وكان شرحا اعتمد فيه على إيضاح الألفاظ
والمعاني ثم يقرر النتائج.

4- حاشية مصطفى الرماصي على شرح
السنوسية أيضا، وقد اعتبرت من الأعمال
الضخمة، لأنها جاءت في حجم كبير.

بالإضافة إلى ذلك هناك شروح
وحواشي أخرى مثلها أعمال عبد القادر
الراشدي، ويحيى الشاوي، ومحمد
أبوراس المعسكري، و بغية الطالب في
شرح عقيدة ابن الحاجب لابن زكري

المخطوطة لهذا النظم موزعة على المكتبات
الإسلامية منها نسخة بمكتبة الأزهر، ومنها
نسخة بمصالح التراث بوزارة الشؤون
الدينية والأوقاف بالجزائر.

ج- الشروح والحواشي: وهو نمط
من أنماط الكتابة لم يكن عند علماء
الجزائر فقط بل عند علماء الإسلام
جميعا، وليس في مجال العقيدة فحسب
بل كان في مختلف العلوم الإسلامية،
ومن أهم الشروح والحواشي في مجال
علم العقيدة:

1- شروح السنوسي: وهي شروح
على مؤلفاته ومنها:

- عمدة أهل التوفيق والتسديد في
عقيدة أهل التوفيق، وهي شرح مفصل
للعقيدة الكبرى.

- شرح العقيدة الوسطى.

- شرح العقيدة الصغرى.

- شرح صغرى الصغرى.

- شرح نظم محمد الحوضي.

- شرح الجزائرية في علم التوحيد
وهو شرح ألفه السنوسي على المنظومة
الجزائرية في علم التوحيد بطلب من
مؤلفها أحمد بن عبد الله الجزائري وأقرض

التلمساني... وغيرهم.

ثانيا: المرجعية الفقهية:

وتتمثل في كتابات العلماء الجزائريين في مجال الفقه، ويمكن القول أن هذه المرجعية توزعت على ثلاثة مذاهب أساسية:

المذهب المالكي، المذهب الإباضي، المذهب الحنفي الذي دخل الجزائر مع الأتراك.

لكن السيادة كانت دوما للفقه المالكي. ومن أبرز الفقهاء الجزائريين:

1- الونشريسي: (ت 914هـ) الذي تميز بغزارة التأليف، وكان في تأليفه الفقهية مبدعا غير مكتف بالشرح أو وضع الحواشي كما هي ظاهرة عصره ومن أهم تأليفه:

- المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، وهو كتاب ضخيم في فقه النوازل، وكما يستفيد قارئه من المسائل الفقهية يتمكن من الاطلاع على الحالة الاجتماعية والثقافية التي كانت سائدة زمن تأليف هذا الكتاب. قال عنه الدكتور أبو القاسم سعد الله: "لو درس الباحثون كتاب المعيار دراسة اجتماعية لخرجوا منه بكنز كبير في معرفة أحوال العصر

وأحوال المجتمع المغربي عامة بالإضافة إلى معرفة آراء المؤلف نفسه في محيطه وقضايا عصره؛ فنوازل البدع والإجازة في التعليم، والفتيا، وسماع الموسيقى، والتصوير، وحكم حلقات الذكر، وقضية القياس والموقف من التصوف ورجاله، ومن تقليد العلماء واستقلالهم كلها أمور تستحق الاهتمام اليوم"⁽³²⁾.

بالإضافة إلى هذا المؤلف الهام ترك الونشريسي كتباً أخرى منها:

- إيضاح المسالك على قواعد الإمام ملك.

- الفائق في الوثائق، وهو الكتاب الموسوم بـ: المنهج الفائق والمنهل الرائق. والمعنى اللاتق بأداب الموثق وأحكام الوثائق.

- تعليق على مختصر ابن الحاجب.
- أجوبة فقهية، وتعرف بفتاوى الونشريسي.

2- المغيلي: وهو محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909هـ) الذي كان من فقهاء عصره ومن آثاره في الفقه:

- شرح مختصر خليل، سماه مغني النبيل
- حاشية عليه أيضا سماها إكليل المغني

والأخبار، وهو من الآثار الجديدة بالنشر والتحقيق⁽³³⁾.

بالإضافة إلى هؤلاء هناك فقهاء آخرون من أمثال عبد القادر الراشدي الذي كتب **تحفة الإخوان بتحريم الدخان**. كما اشتهر سعيد قدورة، وأحمد المقرئ، وغيرهما بالإفتاء.

خاتمة: من خلال ما تقدم من عرض للمرجعية الدينية الوطنية في جانبها العقدي وجانبها الفقهي نعود للتساؤل الذي طرح في المقدمة . ما طبيعة العلاقة بين الخطاب المسجدي في الراهن وهذه المرجعية ؟

الإجابة للأسف سلبية فالعلاقة بين الخطاب المسجدي الآن مع هذه المرجعية علاقة انفصال لا علاقة اتصال. وأعتقد أن هناك عدة أسباب كرس هذا الانفصال منها:

1- إهمال الباحثين في مجال الدراسات الإسلامية للتراث الإسلامي الجزائري، فلم يحظ بالدراسة والتحقيق ومن ثم لم يتح للقارئ المسلم، ولا للخطاب المسجدي الجزائري الآن الإطلاع على هذا التراث

- شرح على بيوع الآجال من الحاجب

3- المعسكري: وهو محمد أبو راس المعسكري (ت1238هـ) وقد كان عالما موسوعيا وكان إنتاجه معتبرا؛ ومن مؤلفاته في الفقه:

- درة عقد الحواشي على جيد شرحي الزرقاني والخراسي.

الأحكام الجوازل في نبذ من النوازل.

- النبذة المنيفة في ترتيب فقه أبي حنيفة.

- المدارك في ترتيب فقه الإمام مالك.

4- القسنطيني: وهو محمد بن محمد

بن أبي القاسم الغربي الميلي القسنطيني وقد ترك كتابا في القضاء بعنوان: **الافتتاح**

من الملك الوهاب في شرح رسالة سيدنا

عمر بن الخطاب، وهو كتاب شرح فيه

صاحبه رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

في القضاء التي بعث بها إلى أبي موسى

الأشعري حينما كان واليا على اليمن.

قال عنه الدكتور أبو القاسم سعد الله: "

يعتبر هذا الكتاب موسوعة أيضا في

أحكام القضاء والدين والأدب والنوادر

في البلاد التي هاجروا إليها، فقد هاجر
الونشريسي إلى فاس ومات بها، وهاجر
يحي الشاوي إلى مصر ومات بها، وهاجر
عيسى الثعالبي إلى الحجاز ومات بمكة.

وعلى كل تبقى خدمة المرجعية
الدينية الوطنية كما هي مهمة الخطاب
المسجدي، مسؤولية مؤسسات أخرى
كمصلحة التراث بوزارة الشؤون الدينية،
والتي يمكنها إحياء هذه المرجعية وخدمتها
بالتنسيق مع الباحثين على مستوى
الجامعات أو مؤسسات البحث الأخرى.

وهذه المرجعية، وبقي بفعل هذا الإهمال
مخطوطا في معظمه، حتى صار الاعتقاد
السائد أنه لا توجد مرجعية دينية وطنية.

2- طبيعة أنظمة الحكم التي تعاقبت
على الجزائر خاصة الحكم التركي،
فالأتراك برحيلهم عن الجزائر أخذوا الكثير
من تلك الكتب إلى بلدهم الأصلي، لذلك
فالمخطوطات الجزائرية التي تحتوي عليها
مكتبات استنبول وغيرها أكثر مما تحتوي
عليه المكتبات الجزائرية. كما أن الاستعمار
الفرنسي سلك نفس السلوك مع العلماء.

3- لم تشهد الجزائر تاريخيا تأسيس
جامع على شاكلة الأزهر أو الزيتونة
أوالقرويين، وافتقار الجزائر إلى هذه
الجوامع دفع بالكثير من هؤلاء العلماء
إلى الهجرة وعادة ما يستقر بهم الحال

الهوامش

- (1) ابن فارس: مجمل اللغة، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، ط2 (1986)، المجلد
الأول، ج1، ص295.
- (2) ابن منظور لسان العرب المحيط، ج1، ص360
- (3) المصدر نفسه والصفحة.

- (4) الألوسي، روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج3، ص177.
- (5) ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص361
- (6) المصدر نفسه، ص 360 - 329 p، (1990) Librairie Larousse، Le petit Larousse
- (7) سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط2 (2000)، ص88.
- (8) المرجع نفسه، ص 99.
- (9) إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، دار الآفاق الجزائر، ط1 (1999)، ص 9، 10، 11، 12.
- (10) أنظر محمد حافظ دياب، سيد قطب الخطاب والإيديولوجيا، موفم للنشر (1991)، ص 8/7.
- (11) المرجع نفسه والصفحة.
- (12) Emile benveniste. Problemes de Linguistique generale، p13 (1974) Gallimard paris .
- (13) أنظر الدكتور كمال عمران، مقال بعنوان في مفهوم تجديد الخطاب، المجلة العربية للثقافة العدد 28، ص62.
- (15) محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية ط6 (1999)، ص10.
- (16) وهي مقولة شاعت في النقد الأدبي كرد فعل على المكانة التي كان يحتلها المؤلف في النص الكلاسيكي.
- (17) محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، ص84.
- (18) سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، ص99.
- (19) هو فيلسوف فرنسي معاصر، من مؤلفاته الكلمات والأشياء.
- (20) سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي ص89.
- (21) أنظر تحديد هذه الأبعاد في الكون الحدائي، الدكتور كمال عمران المجلة العربية الثقافية، ص 63/64.
- (22) نقلا عن دليل الناقد الأدبي، ص90.
- (23) أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، موفم للنشر (1991)، ج1، ص1.
- (24) نقلا عن أبي القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب 1985، ج2، ص96.
- (25) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص97.
- (26) هو البيجوري شارح الجوهرة.
- (27) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص98.
- (28) المرجع نفسه، ص105.

- (29) المرجع نفسه ، ص 99.
- (30) أنظر مقدمة إحسان عباس على تحقيقه لنفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد المقري ، دار صادر ط1 (1988)، ج 1، ص 12.
- (31) أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 103.
- (32) المرجع نفسه، ج 1، ص 123.
- (33) المرجع نفسه ج 1، ص 129.

